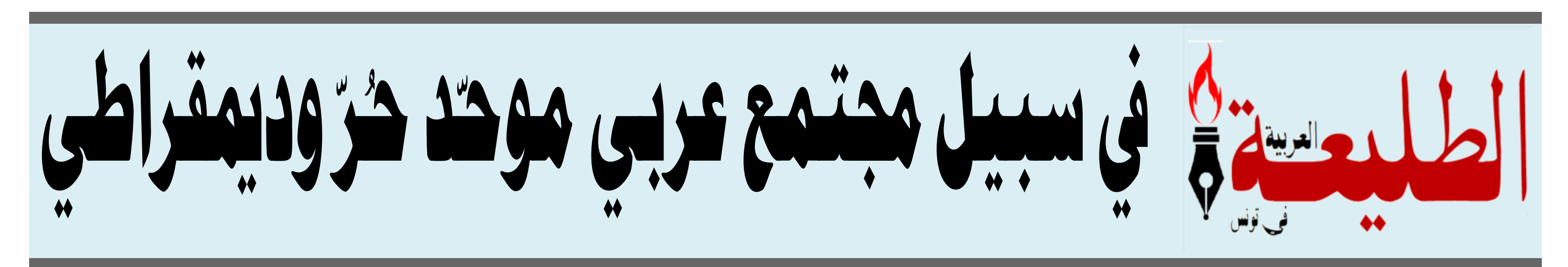


المثقّف والجُمهور
مَن يتّهم مَن
منشورات تونس 2010 الطليعة




# المثقّف والجمهور
# مَن يتّهم مَن؟

محمد جمال طحّان

مقدّمة :

لقد كثُر الحديث في الآونة الأخيرة عن تجسير الفجوة بين المثقّف والسلطة، ولأنّنا لانعتقد بامكانيّة ردم الهوّة بينهما، لا الآن، ولا في المستقبل المنظور، واذا كان تاريخنا قد شهد جسوراً استثنائيّة قامت بينهما، فهي لاتعدو أن تكون جسوراً متحركة وبَللوريّة وملغومة.

ودفعاً لأي التباس، سنبدأ بتعريف السلطة كما يريد لها هذا البحث أن تُفهم.

السلطة هي القوّة التي تبدو شرعيّة وعادلة في نظر الذين تُمارس عليهم. وعندما يزول العدل، ينهار الأساس الشرعي للسلطة وتنقلب الى مؤسّسة إرهابيّة منظّمة.

ونحن -هنا- نتحدّث عن السلطة التي تستمد وجودها من مركز قوّة غير مشروعة، وتميل نحو استخدام العنف لفرض سيطرتها. أمّا تلك التي تخدم الشعب وتستمد وجودها وشرعيتها من مصالحه وأهدافه، وتستخدم الديمقراطية في اتّخاذ القرار، فهي غير مقصودة في حديثنا هذا(١).

ولاأريد أن تقفز الى أذهانكم السلطة السياسية فحسب، فما سلطة الحكومة إلاّ واحدة من السلطات التي تقوم باسم الدين أو العلم أو القانون.

**حال المواطن العربي:**

الانسان في الوطن العربي وليد نظم متقلّبة متراوحة بين التقليد والتحديث يعيش وسط سلطات تتكاتف لقهره وافقاره. والناس فيه يتراكضون لتحصيل احدى السلطتين: السياسية أو الاقتصادية أو كليهما، مما جعل قيم المجتمع العربي- عموماً- تتحدّد في ثلاثة أمور، هي: المال، ثم.. المال، ثم المال.

وأكثر المواطنين يحتقرون الأعمال العلميّة ويتركونها للمطحونين الذين يرهقهم موظّف الضرائب لأن يده لاتطال سواهم.

المهندسون.. والمحامون.. والموظّفون.. والتّجار.. وأرباب العمل، مكتبيّون. والمدرسّون يتحدثون نظرياً عن أفكار لاتطبّق عملياً ويفاجأ المحامي المتخرّج حديثاً بشرطي يمنعه من حضور استجواب موكّله، خلافاً للوائح القانون الجامعيّة.

---

(١) يُقارن: محمد عبد الرحمن يونس «النص والسلطة» في دراسات عربية، عدد ١٠/١١/١٢ آب- ت١ ١٩٩٢، ص٢٨ ومابعدها.

وتصبح الصورة عن المحاضرات والحوارات والكتب أنّها كلام في كلام، والكلام لايطعم خبزاً. أما التقنيّة فنستورد منجزاتها ناجزة من غير أن نفهمها، كما نستورد النتائج النظرية من غير أن نتعلّم المنهج الذي أوصل الغرب اليها.

واذا كان لابدّ- لإكمال صورتنا الحضاريّة- من تحصيل بعض المعارف العامّة، فإنّنا نتّجه فوراً الى الثقافة الاستهلاكية المعلّبة في سوبر ماركت السلطة الاعلانيّة، ونقاد معها ساعين الى تنمية النجاحات الفرديّة، من غير أن ندرك مدى الفائدة التي يجنيها الفرد من خلال العمل للمصلحة العامّة.

ولنلاحظ الهوّة السحيقة بين شعاراتنا وممارساتنا، عبر مثال واحد من عشرات الحالات المنتشرة في وطننا العربي الكبير:

فنحن نطلب من الناس التعلّم، وما أن يحصل الانسان على شهادة جامعية حتى يجد نفسه يبحث لنفسه عن فسحة على أحد الأرصفة، يندب حظّه ويلوم ذويه الذين دفعوه لاكمال تعليمه. والمحظوظ من هؤلاء ينال وظيفة لاتغنيه من جوع ولاتأمنه من خوف، ويعيّن في غير مجال اختصاصه، ثم يفقد معارفه العلمية بالتدريج، ويبقى تابعاً مادياً لسواه، مما يشعره بأنه هامشي، فيفقد الثقة بالعلم وبالدولة ثم يفقد ثقته بنفسه، ويعامل -اجتماعياً- على أنه فاشل، فيلجأ الى الاستكانة واللامبالاة. وهكذا يُضاف الى الأمية الأبجدية رقم خيالي من أميّة المتعلّمين.

لقد تحررت الأقطار العربيةّ على التوالي. بنت قياداتها السياسية دويلات قطرية مغلقة، وبقيت تدور في فلك مستعمرها السابق. وانعكست التجزئة القطرية على المؤسسات والهيئات والأسر العربية، وأمسى كلّ فرد يبحث عن خلاص لنفسه، متوهّما أن الخلاص الفردي ممكن في ظل العلاقات التراتبية الاستبدادية المهيمنة، وانعكس ذلك على الوضع الثقافي، فشاعت اللامبالاة وانتشر الشعور بالاغتراب، واكتسب الناس الكسل، وجهلوا أهمية المشاركة ومنافعها، وتعلّموا على فقدان الثقة بالذات

وبالآخرين، وهجروا العمل وتدافعوا لاحراز الثروات واعتادوا الرياء والكذب والنفاق والاتكالية. من معطف هؤلاء خرج المثقف مترنّحاً يبحث عن هويته. فمن المثقّف؟

**المثقّف والجمهور: محاولة البحث عن مفهوم:**

لابد لنا من تحديد مانقصد اليه بالمثقّف وبالجمهور لنتمكّن من معرفة العلاقة بينهما.

المثقّف اسم عام، لذلك هو لفظ متعدد المعاني، ولايمكن أن نعرّفه بالحدّ التام، ويُكتفى عادة بتعريفه بالحد الناقص، أو بالمثال.

المثقّف عند العامّة (أو الدّهماء) هو الخبير في الحياة، الذي يمتلك فطنة في معاملة الناس بصرف النظر عن عامل العلم. والمثقف بحسب المعنى المتداول منذ الغزالي هو من ألمّ بشيء عن كل شيء، تمييزاً له عن العالم الذي يعرف كل شيء عن شيء واحد. أما المعنى المقارب لما يقصد اليه بالمثقف في المعاجم العربية فهو الحذِق الفَطِن مقوّم الاعوجاج والمهذّب المتعلّم.

أمّا لَالاند وصليبا فيعنيان به، فلسفياً هو من نمت لديه الملكات العقلية أو البدنيّة. والثقافة عندهما هي مايتّصف به الرجل الحاذق المتعلّم من ذوق وحسّ انتقادي. واذا عُرّضت الثقافة بحسب اتصالها بالواقع، نجد أنها على ثلاثة مستويات: متخلفة عن الواقع، أو متطابقة معه، أو متقدّمة عليه. كيف إذن نحلّ الإشكال بين هذه المستويات، وأيّها ينتج مثقفين؟

نحن نزعم أن الثقافة زمانيّة لأنّها تتشكّل في الزمان، واذا كان الزمان يقاس بالحركة في المكان، فان الثقافة تتم بالحركة لا بالسكون. ومن هنا يمكننا استبعاد الثقافة المتخلفة عن الواقع لأنها حركة ارتدادية، كما يمكننا استبعاد الثقافة المتطابقة مع الواقع بوصفها سكونيّة. فهل يكون حاملو الثقافة التي تتقدم على الواقع هم وحدهم المثقّفون؟

فاذا كان الجواب نعم، فكيف نميّزهم من سواهم؟ لنلجأ اذاً الى بعض المعابير التي تميّز المثقّف من سواه. هل المثقّف هو من يقوم بعمل مكتبي؟

ولكن التجار وأرباب العمل والموظفين يقومون بعمل مكتبي، فهل هم مثقّفون؟ واذا أضفنا معياراً آخر للعمل المكتبي الذهني، هو التحصيل العلمي، فهل تصلح هاتان العلامتان لتمييز المثقّفين؟ ولكن.. أليس هناك فرق بين المثقفين وأصحاب الاختصاص في العلوم التطبيقية؟ بل هل يمكن أن نقول عن أساتذة الجامعة في العلوم الانسانيّة أنهم مثقّفون وأكثرهم لايخرج عن المقررات الدراسية التي برمجها اداريون؟ ما الذي يميّز أساتذة الجامعة أو خريجي العلوم الإنسانية من سواهم؟ إنّهم أناس حصلوا على شهادات من أجل ممارسة عمل تخصصي، وهو لايختلف عن سواه، من أنه اختصاص وحسب.

إنّ المثقّف ليس صفة مهنيّة كالطبيب أو التاجر أو المدرّس، أو الطبيب- التاجر، أو المدرّس التاجر. وحتى أعلى الشهادات لاتمنح المرء صفة المثقّف مالم يجاهد ليتجاوز دائرة اختصاصه بحسب تعريف سارتر له بأنه (انسان يتدّخل فيما لايعنيه[1]) فلايمكن القول إنّ كلّ مختصّ مثقّف، بينما لابد أن يكون كل مثقّف مختّصاً، لأنه ليس هناك عمل أو اختصاص اسمه (مثقّف). ونحن نقول (مثقّف) تماماً كما لو قلنا (متديّن) التديّن ليس مهنة أو اختصاصاً، لذلك فإنّ الاختصاص لايُكسب صفة الثقافة.

إننا نستطيع أن نفهم كلمات: الفقيه- الباحث- الصحفي- القاضي.. ولايستطيع الانتماء إلى أيّ منها إلاّ من تمتّع بمواصفات محدّدة ومتّفق عليها. ولكن كلمة (مثقّف) ماتزال لاتستدعي الى الذهن صورة محدّدة، ولهذا يستطيع أي منّا ادّعاء حيازتها. ونحن عندما نقول (مثقّف) فان كل السامعين يتصوّرون أنفسهم. أما عندما نقول (مواطن) أو (جمهور)، فان كل انسان يعتقد أنه ليس معنياً بهذه الكلمة، وكأنّ الحديث

---

(١) سارتر، دفاع عن المثقفين، تر: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٣، ص/ ١٢/ .

يجري عن شخص آخر سواه . فمن هو الانسان العاميّ؟ لأحد يعتقد أنه المقصود، اللهم إلاّ بعض أميي الأبجدية .

ولنلاحظ امتعاض الأطباء والمهندسين عندما نخرجهم من دائرة الثقافة، لأنهم لايقرؤون وتبعاً للمعيار نفسه لايمكننا أن نستثني العمال والفلاحين والتجار من دائرة الثقافة . وماقولنا في الذين لايقرؤون لأنهم يعتقدون أن الثقافة ليست في الكتب، وهم بالكاد يعرفون أن الصومال بلد عربي وأن جهل فعل ماض مازالوا يعيشونه؟ فما العمل اذاً؟ هل نعادي الأخصائيين الذين يقومون بأعمال فكرية، بابعاد صفة الثقافة عنهم؟ وهل نعادي الاداريين والسياسيين؟ وهل نغضب الفلاح والعامل والتاجر والسمسار؟ لا . . إنني أميل، وبحسب المعطيات السابقة، الى قول غرامشي «إنّ كلّ إنسان مثقّف»[(١)]. وهكذا نخرج جميعنا راضين. ولكن ذلك لايعني أنني أريد تمييع المسألة، وإنما أريد توليد التعريف منكم. نحن أمام عنوان (المثقّف والجمهور) واذا كان كل انسان مثقفاً فإنّ هذا يضعنا أمام معضلة البحث عن الجمهور . . فمن الجمهور اذاً؟

لابد، لحل هذه المشكلة، من البحث عن معيار آخر نحدّد على أساسه من المثقّف ومن الجمهور. فلنبحث عن المثقّف من حيث وظائفه . هل يمارس كل الناس وظيفة المثقف في المجتمع؟ هل يمكن أن نقول عن انسان يحمل فكرة ما بشكل عشوائي ويستهلكها بحثاً عن سواها، بأنه مثقّف؟ وهل تطلق عليه هذه الصفة كما تطلق على انسان ينشر الفكر بفعالية، ويساهم في ابداعه، يحمل ثقافة لا ليستهلكها، بل ليعيد انتاجها ثم يتجاوزها بانتاج ابداعي؟ لنتفق -مبدئياً- مع كل انسان بأنه مثقّف، وأنه يمتلك وعياً فردياً فذاً، وليتفق معنا هو أيضاً بأننا نحتاج الى وعي جمعي مرافق. فمن الذي ينتج هذا الوعي؟ فلنبدأ من جديد.

---

(١) انطونيو غرامشي، قضايا المادية التاريخية، تر: فواز طرابلسي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧١، ص/ ١٣١/ .

لدينا مفردات :

المعلّم المتعلّم المعلّم المتعالمْ

المعلّم يعلّم، والمتعلّم يتعلّم، والمعلّم قد تعلّم.

المعلّم يرسل، المتعلّم يستقبل، المعلّم يحاور

المعلّم فاعل، المتعلّم منفعل، المعلّم متفاعل

وبالمقابل اذا أعطينا للمثقّف فاعلية يغدو مثقفاً. فيصبح لدينا :

المثقّف، المتثقّف، المثقّف، المتثاقف

المثقّف يثقّف، المتثقّف يتثقّف، المثقّف قد تثقّف

المثقّف يصدرُ، المتثقّف يتلقّى، المثقّف يحاور

المثقّف فاعل، المتثقّف منفعل، المثقّف متفاعل

وعليه فأنت مثقّف بوصفك مرسلاً، في لحظة التصدير

وأنت واحد من الجمهور بوصفك متلقّياً في لحظة الاستقبال.

والجمهور لغةً هو أشراف الناس، وهو الذي يحضر ليصغي رغبة منه في أن يتقدّم.

وعندما نقول : «جمهور» فاننا نعني به المثقّف المتفاعل، أي المتلقّي الذي يعي. ولاأظن أن هناك متلقّياً للثقافة لايعي، وإلا لكفّ عن كونه من جمهورها. ان قلّة حضور جمهور الثقافة الى منابرها، لاتعني بأن الرغبة في الثقافة لديهم انعدمت، ولكن هناك مانعاً منعهم من ذلك، كالركض اللاّهث خلف لقمة الطعام، أو بسبب ضيق أفق المثقِّف (بكسر القاف وتشديدها)، أو لاستخدامه لغة مغرقة في التخصص الاصطلاحي، أو لأنه يتحدّث بأمور لاتمسّ واقعهم، أو لأنّ المحاضر ترك دوره وانضم الى قافلة وسائل الاعلام.. الى آخر ماهنالك مما سنتكلم عليه لاحقاً. وبحسب هذا التعريف يغدو مفهوم (المثقّف) هشّاً أمام مفهوم (الجمهور)، لأن المثقّف قديكون في السلطة أو على هامشها، وقد يكون انتهازياً أو نفعياً أو ميكيا فيلياً. ولكن جمهور الثقافة هو المقهور الذي يبحث عن مخرج لنفسه ولأمّته، وهو مايزال يحمل في داخله بصيص أمل للتغيير، ولانملك إلاّ أن نحترم موقفه النبيل.

اذاً كلّ انسان مثقّف، وأفضل المثقّفين الجمهور، باعتباره متفاعلاً واذا لم يكن كلّ متعلّم مثقّفاً، ولم يكن كلّ مثقّف مثقّفاً، فإنّ كلّ مثقّف متعلّم وهنا نقوّم عنوان موضوعنا فيصبح (المثقّف والجمهور).

ومن جهتي فأنا أفضّل أن أثقّف قليلاً، وأن أكون واحداً من الجمهور دائماً، أو إنني كذلك فعلاً.

أمّا مصطلح المثقّف أو الانتلجنسوي فاننا سنتركه للمعنى السلبي للكلمة، وهذا سيتضح من خلال المقارنة بين المثقّف والمتثقّف اضافة لما طرحناه من اختلاف حول المفهومين من خلال عاملي الارسال والتلقّي.

إن المثقّف هو الذي يقرأ الواقع وينقده، ثم يعيد تشكيله عبر أسئلة الوجود المقلقة، ناشداً التقدّم، قد يكون المثقّف مع احدى السلطات، ولكن المثقف لايستطيع إلاّ أن يكون مع الجماهير، لأن الذي ينخرط في صفوف السلطة يكف عن كونه مثقّفاً، لأنه بحسب موقعه السلطوي- يعزّز الواقع المتخلّف، فكيف يدعم التخلّف ويدّعي العمل من أجل التقدم والجماهير؟

فالمثقّف بهذا المعنى هو المثقّف المتعلّم المعارض الفاعل الذي يتّخذ موقفاً ويدافع عنه أما المتثقّف السلطوي أو السلبي أو الانتهازي، وإن كنا لاننكر عليه ثقافته، فاننا سنترك الحديث عنه لسوانا، لأنه لايعنينا، ولانعوّل عليه في عملية تجسير العلاقة بين المثقّف والجمهور لصالح الوطن والمواطن.

إن التثقيف فن، والمثقّف فنّان والفنان محتجّ يريد أفضل مايمكن أن يكون.

لذلك يرفض الواقع، ويركّز على السلبيّات فيه، لأنه يرى أن الشيء الجيّد هو شيء طبيعي لايمنّ به أحد علينا.

إنّ الفنان يُظهر جمال الواقع الطبيعي، كما يُظهر قبح الواقع المستحدَث سلطوياً، يظهره عبر أداء جمالي يدعونا الى نبذه. وهو بذلك مفكّر حرّ، يخدم الفكر الحرّ الخالي من طموح سلطويّ، مناهضاً كل الظروف التي تجعله مستبداً أو مستبَدّاً به، رافضاً تبوأ أيّ مركز سلطويّ، لأنه يعدّ أيّ اعتداء على أيّ حرية اعتداء يمسّ كرامته هو قبل أن يمس سواه، فكيف يمكنه تمثيل دور قاهرية من

غير أن يكفّ عن كونه مثقفاً مبدعاً؟ فان تكن هذه هي مواصفات المثقّف، فكم من المثقّفين يوجد لدينا؟ وماهي حالهم؟ وماسبب فتور العلاقة بينهم وبين الجمهور؟ وهل هناك مشكلات خاصة بالمثقّف بوصفه مثقّفاً يحاول اختراق جدار السلطة تمهيداً لهدمه؟

**حال المثقّف والجمهور:**

لقد حاولنا فيما مضى وصف واقع المواطن العربي في سجنه الكبير، كما حاولنا تحديد مصطلحي المثقّف والجمهور، على الأقل كما يردان هنا وقبل تحديد دور كلّ منهما، سنحاول أن نرسم صورة واقع المثقّف ثم واقع الجمهور لنرى من يتّهم من؟ وذلك ضمن اطار قانونيّ نعيشه (المواطن متّهم حتى تثبت براءته).

إنّ المثقّف يرى نفسه لاينتمي الى رابطة ثقافيّة، كما لاينتمي الى فئته الاجتماعية التي انحدر منها، لذلك يعاني الاغتراب ويدين السلطة والجمهور ونفسه، ويتبادل مع زملائه الاتهامات بغير احترام. فكيف يثق الجمهور بمن لايحترم سواه كدليل ضمنّي على عدم احترامه لذاته.

إنّ مثقّفينا -كمواطنيهم- يعتقد الواحد منهم أن نجاح الآخر يعني فشله[١]. وبالتالي فهو في صراع مع مثيله، ونحن -عموماً- لانتقد، بل نكتفي بالتشهير ببعضنا. وكثيراً ما أعرض عن التصريح بآرائي لأنني لاأريد فض العلاقة الثقافية والحميمية بيني وبين الآخرين. فاذا مااجتمعت بمثقّفين ذوي اتّجاهات مختلفة، بدءاً من أقصى اليمين وانتهاء بأقصى اليسار، فانّ التصريح بوجهة نظري لابد أن يعني أنني سأخسر الفرقاء الذين لايوافقوني عليها لأننا -الى الآن- لم نتعلّم كيف نتّفق على الاختلاف، ونربأ بأنفسنا عن الطائفية والتعصبية والشلليّة. ونتجاهل أن أيّاً منّا لايستطيع أن يكشف إلاّ عن حيّز ضئيل من الحقيقة، من غير أن يستطيع أحد الادّعاء بحيازتها

---

(١) ينظر: هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الأهلية للنشر، بيروت ط٥، ١٩٨٥، ص/ ٩٢.

وحده وقد يبدو المثقف تقدمياً في محيط زملائه الجامعيين مثلاً –ورجعياً في محيط أسرته. وعلى ذلك يلاحظ لديه انفصام وازدواجية في السلوك، مما يصرف الجمهور عنه. والمثقّف يخاف من ابداء الرأي بحريّة، ولايبقى مصراً على مواجهة السيء أو الشر أو القبح، فكيف يريد من الجمهور أن يفعل ذلك واذا نظرنا الى بعض المثقفين في مكان ما، نراهم ناقدين محلّلين موضوعيين، فاذا مامُنحوا خمس دقائق في الاذاعة أو التلفاز، نجدهم ينقلبون بطريقة ميكانيكية الى مدّاحين مبشّرين.. تعجبهم سلطة ما، وبرامجها، والتقدّم الذي تحقق بفضل فلان خلال فترة وجيزة. ثم نراهم في اليوم التالي يعانون الأمرّين من أجل الحصول على الرغيف، أو يُضطرّون الى القيام بأعمالهم على ضوء الشموع.

كما أن المثقّف –عموماً واجمالاً– يستعمل عادة لغة اختصاصية تغرق في استخدام مصطلحات لايفهمها الجمهور، وهو بذلك يماثل الانسان الذي يتحدّث بأسلوب زئبقي عبر جمل غامضة يصعب ربطها، بحيث تكون محصلّة خطاب أو مقابلة تلفزيونية تمتد ساعتين هي: لاشيء.

مما يجعل الجمهور ينحسر شيئاً فشيئاً ويمتنع عن الاصغاء لمثقّف لايقول مايريد قوله ببساطة ووضوح.

والمثقّف قد يأخذ دور السلطة الأبوية أو السياسية، فما أن يصعد الى منبر ما حتى يبدأ في الوعظ. وكثيراً مانستخدم الوعظ التهديدي قائلين: قال فلان المسؤول (الذي أضحى سائلاً في الواقع) كذا.. وعلينا الالتزام بأقواله لأنّ سلطته عليا وملزمة. ثم نعلق الشعارات المحذّرة: بأمر من البلدية ممنوع رمي النفايات في الشارع، وممنوع استخدام الزمور، بأمر من شرطة المرور –فاذا أردنا التوعية، ما الذي نفعله.. نرهب.. نرفق مطالبنا الإصلاحية بترهيب من مصدر عال.

واليكم مثلاً واقعياً: في قصر العدل بحلب.. وفي منتدى المحامين، حيث لايدخل المكان عادة إلاّ محامون، كتبت في احدى الزوايا لافتة تقول:

لاترمِ أعقاب السجائر على الأرض. أولاً: محامون ولايلتزمون.. ولنتنبه: مثقَّفون ذوو عمل علمي لايلتزمون بالنظافة. ولنتنبه: محامون يخاطبون بلهجة آمرة (لاترمِ) ولنتنبه: مثل هذه اللافتات التي لاتوضع إلاّ لمن يفك الخط بصعوبة.. كتبت لمحامين، ثم كتبت (لاترمِ) بالياء، ولم يعترض أحد المحامين عليها، لاأدبياً ولاأخلاقياً ولانحوياً، وكأن الأمر لايعنيهم.

إنّ الوعظ لايجدي لمكافحة الرشوة -مثلاً- في مجتمع تنمّي فيه وسائل الاعلام، وهيئات التخطيط، والعلاقات الاجتماعية، الجشع اللامحدود.

إنّ المسألة أكبر من ذلك بكثير، إنّ الشيء اللازم هنا هو التوعية، المترافقة بامكانية التطبيق، بعيداً عن الخطاب الوعظي العقيم. ومن المثقّفين الذين لايخرجون عن الأسلوب الوعظي هم بعض خطباء المساجد الذين لاينفكون يعظون الناس بالوعد والوعيد، بالترغيب والترهيب، للفوز بالنعيم وتجنّب الجحيم. ان مثل هذا الأسلوب يلامس العاطفة لا العقل، إنّه يخاطب الشعور فيحسّ المتلقّي برهة من غير أن يقنعه. ولهذا نجد المصلّي ما إن يخرج من المسجد حتى تعاوده نوبة الاستغلال والتناحر والصراع لحيازة السلطات الدنيوية.

إنّ الهدف الأساسي من خطبة الجمعة هو توعية الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم إنّ المسجد جامع تتضح أبعاد كونه جامعاً، يوم الجمعة، حيث يسعى ملايين الناس اليه، في لحظة واحدة، لينصتوا بخشوع.

ومن هنا تأتي أهمية هذه الوسيلة العظيمة من وسائل التوعية. جمهور غفير يذهب ليتلقى مسلماً مستسلماً حيث لايفكر إلاّ القليلون منهم بالتلقّي النقدي، وحينذاك يكون الوقت مناسباً لأن يرتفع المثقّف -الخطيب عند الله وعند الجماهير بأن يتحدث اليهم عن أسباب معاناتهم ويحاورهم في سبل التخلّص منها.

وهذا الأسلوب الخطابيّ -إن لم يصدر عن متعمّم- قد يعطي انطباعاً

للجمهور بأن صاحبه متعجرف متعال وبأنه يعد نفسه من النخبة التي تختلف عن الرعاع. وتتعزز تلك الصفة فيه حين يبدو جاداً في بعض آرائه، وحين لايترك مجالاً للحوار، وحين ينأى بنفسه عن المشاركة بالنشاطات الاجتماعية، فيقطع صلته بذويه ومعارفه، ويتعامل مع الناس على أنهم موضوع للتحليل من غير أن يتواصل معهم ويدرس مشكلاتهم عن قرب.

كما أنّ المثقّف، خاصة بوصفه مبدعاً، يلاحظ أنه قد لايتحمل نقداً ولايصغي اليه. فاذا ماوجّه اليه نقدسرعان ماينقلب الى انسان بدائي. لابأس، يمكنك أن تتبصرّف كشاعر، ولكن هذا لايعني أن تتعالى على الجمهور وأن تتّهم نقّادك بالدونية وبنقص الاطّلاع. إنّ الجمهور لن ينتظر خيراً من رجل لايحمل من الشعراء إلاّ تطرّفهم، في حين أن المبدع كلما علا شأنه ازدادت شفافيته، ازداد ابداعاً ورفعة واتّصالاً بالناس.

كما على المثقّف أن ينفي عن نفسه صفة النخبة أو الأنتلجنسيا، لأن هذا الوصف ينفّر الجمهور منه، ذلك الجمهور الغارق حتى أذنيه بالنخبة السياسية، والنخبة العسكرية، والنخبة الفنيّة، والنخبة الاقتصاديّة.

فهل تنقصه النخبة الفكريّة أيضاً؟ هل هو بحاجة الى نخبة أخرى تتعالى عليه وتخاطبه بلغة لايفهمها؟ لاأظن ذلك. بل على المثقفين أن يوصلوا الأفكار والمفاهيم المجرّدة الى الجمهور بلغة واضحة مفهومة لاتحتمل اللبس أو التأويل، آخذين بعين الاعتبار خصوصية الجمهور الذي يخاطبونه. حقاً، إنّ المبدع اليوم محاط إمّا بمشكلة الوضوح ومعاداة السلطة أو بمشكلة الرمزية ومقاطعة الجمهور الذي لايقوى على حل الألغاز.

ومع ذلك، على المثقّف أن يدخل في لعبة التمرير على الرقيب محاولاً الحفاظ على لغة وأسلوب فنيين من خلال رفع سويّة الجمهور واستطلاع رأيه لتحقيق فريد من التواصل معه. وإلا، أليس غريباً أن يستخدم المثقّف -أحياناً- لغة غير مفهومة في مخاطبة الجمهور، مادام الخطاب موجهاً اليه أصلاً؟ ومافائدة مايقال -حينئذاك- اذا كان لن يعيه إلاّ

متخصصون، كأن يحدثني عن الفرق الكيماوي بين الزيوت المهدرجة وغير المهدرجة من غير أن يسمي لي المواد التي عليّ تناولها حتى لايضاف إلي فقر الدم الى فقري الجيب والحرية. إنّ فعالية المثقف تقاس بمدى قدرته على جذب الجماهير والتعبير عنها بشكل حقيقي، والجمهور لن يقتنع بالمثل العليا، مالم يجد بعداً عملياً سريعاً لها. ومن أجل اقناعه وكسب مشاعره، لابد من تحويل الأفكار الى صور واضحة تتصل بحاجاته ليصبح للأفكار بعد عملي، ويقتنع -حينذاك- بأهمية التطوير، ولكي يكسب المثقف ثقة الجمهور، لابد له من الابتعاد عن أهل السلطة، ومراكز القوى. وكلما ابتعد عنهم كسب الناس وتأكدوا من أنه لايشارك في عملية الخصي الفكري الذي يصيبهم، لأنهم مدركون أنه لايستطيع أن يكون ودوداً وديمقراطياً إلاّ مثقفاً بلا سلطة وبلا مراكز قوى تسانده. إنه مثقف يقف في وجه أعداء الناس معبّراً عنهم ومتصدّراً -باسمهم ولأجلهم- عملية الرفض القاطع للنتانة. وهو المنوط به -على امتداد الوطن العربي- بناء ماهدمته السياسة القطرية التي ترسّخ التجزئة وتسعى الى تدعيمها.

وقد يتساءل المثقف: نحن نتكلّم، ولكن من يصغي الينا؟

نحن نتكلم ونناقش ونحلّل ونضع الحلول ولانلقى صدى جهودنا لدى الجمهور، وكأننا نكتب لبعضنا أشياء نعرفها جميعاً، فلماذا نرهق أنفسنا، خاصة، وأننا محاصرون عربياً وسياسياً وتربوياً واقتصادياً. فكل قطر يمنع مايشاء من الصحف والمجلات، وكثير من الحكومات العربية تريد أن تصنع من كل مواطنيها نسخة واحدة تمجّد باسمها، فاذا ماأبدعنا استعملت معنا أساليب الترغيب والترهيب، كما أنّ الأعراف السائدة تتجنّب الابداع وتحذّر من تناوله أو تداوله وتشجّع التلقي التلقيني.

هذا فضلاً عن أنّنا منهمكون، كلّ بعمله أو اختصاصه مما يشغلنا عن انتاج الثقافة أو تلقّيها. وقد يرتاب المثقف بالجمهور، لأنه يرى الناس عادة تبارك الأقوى، فلماذا يناضل من دون أن يلقى قوى جماهيرية تدفعه وتحميه.

هكذا يجد المثقّفون أنفسهم وحيدين فيتحول اندفاعهم الى مايسمّونه القرف من مواصلة تنظيف المستنقع منفردين، ويفضّلون الانسحاب ضاربين للجمهور أروع الأمثلة على اللامبالاة، ثم يبدؤون بتوجيه التهم اليه مبتدئين بوصفه باللامبالاة وانعدام التفاعل، اذ يترك الناس المثقّف يواجه مصير جرأته بنفسه من تهميش واقصاء، غير مدركين أن السلطة عندما تهمّش المثقّف أو تقصيه، فانّها تقصي معه كل الفئات التي ينتمي اليها أو يدافع عنها، وعندما تغتاله فانّ ذلك يعني قطع لسان الأمة، ومن البديهي أنّ الوعي يحتاج الى انسان يقبل بتحمّل المسؤولية، أمّا الذي يؤثر السلبيّة، فانّه عندما يواجه فشلاً، يلقي اللّوم على القدر أو الظروف، ممّا يزيد من تواكله فيعجز عن مجابهة سلبيات الواقع ويستهلم الى الاستكانة واليأس، ويعمل على الهرب من الواقع عن طريق ثقافة الاستهلاك.

ومع مرور الأيام ارتبطت الجماهير برجل الدين -الخطيب- الدّاعية، ولم تعد تميّز بينه وبين عالم الدين- المثقّف، الذي هو وحده المؤهّل للانضمام الى قافلة حاملي لواء التوعية، عبر ايمانه بأنّ الاسلام دين العقل وليس دين الدروشة والخرافات التي يتخفّى خلفها مثقّفو المنتفعين المتنفعون.

وماالذي يفعله الجمهور أمام عطاء المثقّف؟

إنّه يستقبل المعلومات بشكل أفقي من دون انتقاء أو حوار أو تفاعل إنّه يخزّن المعلومات[1] لينضمّ الى قافلة مدّعي الثقافة الذين يذكرون لك من أسماء الكتب والكتّاب. في حديث قصير ما قد يفوق مايقرؤه طالب جامعي خلال سنيّ دراسته. وما النتيجة التي يمكن الخروج بها بعد ذلك؟ لاشيء.. مجرد كومبيوتر رديء الصنع. واسمحوا لي بتعبير لم أجد أفضل منه لوصف حالتنا الثقافية أو التعليمية عموماً.. إنّ المتلقي الذي يتمتع بذاكرة قوية (يتقيأ) المعلومات بعد أن يسمعها، من غير أن يُعمل فكره فيها،

---

(١) ينظر الحديث عن (التعليم البنكي) عند باولو فرايري، تعليم المقهورين، تر: يوسف عوض، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٤٩-٦٣.

إنّه فرّاخ للمعلومات، وبهذا يخدم السلطوي الذي يحرص على بقاء الثقافة في حالة دائرية ويحول دون تحويلها الى ابداع ومشاركة، وذلك لمعرفته بأن انتشار المشاركة الثقافيّة ستفضي بالضرورة الى مشاركة اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة لاتلبث أن تسحب الكرسي الذي يجلس عليه المستغلّون. ويتبع ذلك كله أن الجمهور لايقرأ وهو في أحسن الأحوال، يرهق نفسه بحضور بعض الندوات والمحاضرات، يتلقّى ماتيسّر له من معلومات ثمّ ينصرف متذمّراً من أنّ المثقّف قد أورد بعض الكلمات والمصطلحات الصعبة ليبرهن لنا أنّه (مثقّف). هذا في حين أنّ جمهور الثقافة لابد له من أن يحاول امتلاك بعض المفاتيح المعرفيّة ليتمكّن من التواصل مع المثقّف، وليشارك من ثمّ، في عمليّة الارتقاء الثقافي لشعبه.

وقد يحجم الجمهور عن التواصل لارتيابه بكل مايدور حوله، ظانّاً أنّ الحوار يبقى محصوراً في اطار المتنفّذين الذين لايريدون من الحوار سوى كشف المعارضة أمام السلطوي، تمهيداً لتسليمها اليه واستلام المكافأة. وعلى العموم، فإنّ الجمهور لاوقت لديه للقراءة ومتابعة التطوّرات التي تحدث في العالم، إنّه مواطن مسحوق يلاحق لقمته في فضاء سلطات تدفعه ليرهق.. ثم تروّج له الاستهلاك، ليبقى يلاحق حاجات اصطناعيّة- مصطنعة. ويغفل عمّا يدور من حوله، لاتريد السلطة أن تتيح وقتاً للجمهور كي يفكّر، ولهذا فانّ كثيراً من الناس هم جمهور بالقوة جمهور كانت، ما إنْ تتاح له فرصة الشعور بالثقة تجاه المثقّف حتى يدرك أهميّة الثقافة التي لاندّعي أنها بديل الخبز، ولكنها ضرورية من أجل الحصول عليه غير مغموس بدم الأصدقاء.

**دور المثقف:**

إنّ العلاقة القائمة اليوم بين المثقّف والجمهور، هي في أحسن الأحوال، علاقة مجاملة. ولاينكر أحد أنّ كلاً منهما يحتاج الى الآخر ويحتاج من الآخر أكثر من المجاملة، بحيث يمدّ كل منهما يده ليعاهد الآخر على التفهّم والتفاهم لبدء علاقة العمل الموحّد من أجل خير الانسان.

فاذا بدأنا بدور المثقّف ليمدّ جسراً من ناحيته باتّجاه جمهوره، نلاحظ أن دوره يتوزّع على صعد ثلاثة:

أولاً- دوره مع نفسه بأن يكون صادقاً معها في كل مايقوله ومايفعله بحيث يتيح لها الانسجام الداخلي.

ثانياً- دوره مع زملائه بأن يتعاون وإيّاهم عبر حوار متواصل يفضي الى تحسين العلاقة بينه وبينهم ليعمل واياهم كفريق.

ثالثاً- دوره مع الجمهور بأن يكسب ثقته ويبادله عملية التفاعل لتوسيع الذاكرة الثقافية حتى ينقرض تعبير الدهماء أو العامّة الذين لايرون ولايسمعون ولايتكلّمون.

إنّ النجاح على هذا المستوى، هو الطريق الوحيدة التي تفضي الى استعادة كرامة المواطن وحريته، وتمكّنه من التواصل مع العالم، على اعتبار أن الحضارة مكسب انساني وليست وقفاً على شعب دون شعب، أو اتّجاه دون آخر، واذا حاولنا الدخول في شيء من تفاصيل دور المثقّف لتجسيد العلاقة بينه وبين الجمهور، نجد أنّ أول خطوة عليه تحقيقها هي أن يبدأ فوراً بتحقيق الانسجام، بين أقواله وأفعاله، متخطّين، بذلك، تعريف (بورجيه) للمثقّف بأنّه (من يعيش كما يفكر، لا من يفكر كما يعيش) وذلك لأنّ من يعيش كما يفكر انسان خيالي في عالم سقطت فيه اليوتوبيات بين فكّي الاقتصاد الذي خلق لمالكي زمامه لساناً وأسناناً، والمقعد الذي خصّصه (شارل فورييه) لمتنفذ أو ثريّ يموّل له انشاء كتيبة مجتمع الانسجام والعدالة، لم يزل خالياً حتى الآن، ومستشار الحب الذي يعمل بتوجيهات الحاكم العالم في (مدينة الشمس) التي تخيّلها (توماسو كامبانيللا)، تحول الى جلاّد ينفّذ أوامر الحاكم الظالم في غابة الظلام، فلايمكن أن نعيش كما نفكّر، كما أننا لانفكّر كما نعيش. وهذه احدى مآسينا، إنّنا نفكّر باتّجاه، ونعيش باتّجاه آخر، في حين أن ايجاد ميزان للمعادلة بين الفكر والواقع أضحى من

لزوميات المنهجية التي علينا اعتمادها في الحياة لنعيش فكرنا ونفكّر بعيشنا ليحصل التوازن.

ومن ذلك، أيضاً، أنْ يتكاتف المثقّفون من أجل ايقاف عمليات التجهيل والتفكير والادانة لرفاقهم، مهما اختلفت اتّجاهاتهم وتباينت مواقفهم. ولكنّ الدعوة الى التكاتف بين المتخالفين، لابدّ أن تحذر من التسامح. لأنّ التسامح هو احدى المعضلات في اختلاف المثقّفين وفي اختلاف المثقّفين والجمهور. إنّ التسامح يعني أنني أخالفك الرأي، ولكنني -كرماً منّي- أغضّ الطرف عن ذلك الاختلاف، أكون بذلك تجاهلت حقّك في أن يكون لك رأي مخالف لما أعتقد به. جاء في لسان العرب (تسامحَ أي تساهلَ) و(تسامحَ في الشيء تساهلَ فيه) أما في تعريفات الجرجاني فانّ (المسامحة ترك مايجب تنزّهاً). فهل يقبل أحد منّا هذا الكرم، واذا قبلناه، ألا نكون عرضة لأن يُسحب منا في أيّ لحظة؟ وعلى ذلك ألا يكون الحوار والاتّفاق على الاختلاف أولى من التسامح على مضض؟

إنّ المثقّف عندما يمارس دوره فإنّه لايقدّم كرماً للآخرين، لأنّ تحرير ذاته مرتبط بتحرير الآخرين أيضاً، وبالتالي فإنّ وعيه مرتبط بوعيهم، وليس أفضل من أن يكون ذلك عبر الحوار والمشاركة، بعيداً عن التشهير والتكفير.

إنّ المثقّفين يمثّلون فئات المجتمع كلّه، واتفاقهم يعني اتفاقية شريطة أن يكسبوا ثقة الفئات التي ينتمون اليها، بأن يعملوا على تحسين وضع مواطنيهم بما يملكونه من إمكانيّات. وذلك من خلال مناقشة هموم الناس وأمانيهم(١)، ومن خلال اقتناعهم بأن المثقّف يتحدث اليهم ومعهم وعن مشكلاتهم، وليس بالنيابة عنهم ومن دونهم، وعن أشياء مجرّدة أو أرقام وأفكار يرون أنّها لاتمسّهم أو أنّها غير صحيحة في الواقع العملي. وإلا فما الفائدة من ترديد المثقّف ماتقوله وسائل (الاعلان) كلّ يوم؟!

من المهمّ أن يلاحظ المتلقّي أنّنا نحبّه حتى يمكننا اكتساب ثقته. ولن

---

(١) من المفيد بهذا الشأن، مراجعة مجلة الفكر العربي، عدد ٥٤، ك١، ١٩٨٨.

يثق الجمهور بمثقّف لايصدّقه ولاينقل اليه الحقائق، محلّلاً وناقداً. ولن يثق بمثقّف يهمل العروبة والاسلام في خطابه. ولنفنّد قليلاً عاملي الثقة والمكونّات: لماذا يقاطع الجمهور وسائل الاعلام؟

لعدم مصداقيتها ثم لأنّها لاتعبّر عمّا يعانيه، فلاهي تنقل اليه حقائق مايحدث من حوله، ولاهي تُعنى بخبزه اليومي. فهي مجرّد كتابات تريد تسويد الصفحات، وشغل أوقات البث الاذاعي والتلفزيوني المقررة. وكل ماتفعله هو اخبارنا أننا بخير، وأننا في تقدم حثيث، مع أن كل ماحولنا ينبئنا العكس. وهكذا لاينتبه القائمون على وسائل الاعلام في الوطن العربي الى وظائفها الأساسية في بثّ الوعي وبسط الحقائق، وفي كونها مجالاً مهماً لاجراء الحوار.

هذا يعني أنّ الجمهور لديه بذرة وعي صالحة تحتاج الى ريّ صالح لتنمو، ولكنّه يغالي -أحياناً- باتّهاماته التي يوجّهها الى المثقّف الذي يُطلب اليه أن يأتي بالمعجزات وأن يعمل على تكوين رأي عام حقيقي، بالرغم من قلة الوسائل المتاحة أمامه للكلام.

إنّ الرأي العام لايتشكّل إلاّ من خلال توافر حرية الفكر والتعبير والتعليم والاطّلاع على مايدور في العالم ومعرفته معرفة دقيقة وحقيقية، كما أنه يتأثر بالتراث الثقافي من عادات وتقاليد ومعتقدات وقيم.

والمثقّف وإن يكن في الوقت الحالي غير قادر على تكوينه، له دور كبير في تبصير الناس بمصالحهم، وبما يدور من حولهم، وبالتصدي للرأي العام المصطنع الذي يقوم على الدعاوة والرقابة، حيث يتم حذف بعض الحقائق، ويزيّف بعضها، وتحلّى بالأكاذيب والشائعات، ويحظّر الخوض في الحجج المعارضة أو في الجوانب الأخرى من المشكلة المطروحة من وجهة نظر اعلاميّة. وحيث تنحاز الجهة التي تريد تزييف الوعي الى جانب واحد ولاتهتم بموضوعية الخبر، وذلك لتوجيه الرأي العام الى الوجهة التي يريدها أصحاب الدعاوة.

وغالباً يتمّ إلقاء اللوم على الامبريالية والماسونية والبنتاغونية وسواها، لتبقى الحكومات المحليّة بمنأى عن أي شبهة.

من هنا يبرز دور المثقّف في ترسيخ الوعي الجماهيري، بالعمل على تكوين رأي عام موحّد لاينفي الاختلاف ولكنّه يحارب الطائفية والتعصبية والشللية أينما وجدت، وكيف وجدت.

ولايمكن أن يتم ذلك إلاّ من خلال انتباهه وهو يمارس دور التوعية، الى مكوّنات الانسان العربي الذي لايمكن أن يقبل أي خطاب يسلخ عنه تراثه العربي -الاسلامي، ومعتقداته الدينية الخاصّة، وماترسّخ في ذهنه من وعي أسطوري غيبي عبر نيّف وخمسة عشر قرناً؟!

لذلك لابدّ أن يكون منطلقنا في الحوار والتوعية مستنداً الى ذلك كلّه. فنتعاون على بثّ روح العقلانية بالتدريج، محاولين التأكيد على أنّ الميثولوجيا شكل من أشكال الفنّ، علينا أن نعيها وليس علينا أن نعيشها.

ومن هنا تأتي أهميّة المثقّف -الشيخ- وينبثق دوره.

إنّ الجماهير اليوم مرتبطة بالمثقّف -الإمام أو الخطيب العالم. فليحوّل هؤلاء موضوعاتهم من الاقتصار بالحديث عن مآثر التاريخ والفروق بين المذاهب، وليبدؤوا بالاهتمام بمشكلات المواطن، والعوائق التي تحول بينه وبين تكوين ثقافة حضارية.

وما الذي ينتظره المثقّف من أجل أن يبدأ باستخدام لغة مفهومة واضحة، وبشرح الواقع ونقده، وبالكلام على معاناة الناس، وبتكوين رأي عام واع، وبمحاربة التقوقع والطائفية، وبعقلنة الأسطورة، وبالالتحام فوراً بالجماهير.

ما الذي، أو من الذي ينتظره المثقّف حتى يكسب ثقة الجمهور؟

إنّ المثقّف هو الذي ينتج الوعي، فعليه أن يخرج من صمته ويقتحم. وهو لايحتاج الى توافر الحرية حتى يبدأ ذلك، بل عليه أن يمارس دوره بالرغم من غيابها، أو بسبب غيابها. إنّ هدفه توعية الجمهور لجذبهم، ويمكنه أن يفعل ذلك بكل الوسائل الممكنة، مهما تكن ضئيلة، وبالرغم من الظروف القاهرة، لأنه هو المنوط به امكان تحسين ظروفه وظروف الآخرين ويتعاظم

دوره في ظل الاستبداد والجهل والتخلّف والتجزئة، فلاينتظرن من أحد أن يسمح له بممارسة دور التوعية، بل عليه أن ينتزع هذا الحق بنفسه، من غير أن ينتظر توافر الحرية ليعمل. إنّ المثقف هو المحرر، فكيف يحتاج الى محرر يحرره ليحررنا بعد ذلك؟!

والمبدع يدرك أن الحريّة، هي أولاً، موقف. وهي، أخيراً، موقف.

لأنّ الحريّة الحقيقية هي حريّة الداخل التي تنادي بحريّة الخارج التي لايمكن أن يشعر بها المبدع، ويبقى -مع ذلك- مبدعاً. وإلاّ فكيف سيتسنى له تفجير أدواته الابداعية -لغة وألواناً وصوتاً- مالم يواجه تحدّي العالم من حوله باستمرار. فلابدّ للمثقّف من اختراق جدار السلطة الحدودية بين أجزاء الوطن العربي بما يملكه من أدوات التعبير والعمل، ليصل الى الجمهور، ويبدأ خطوة التواصل مع الناس فيؤازرهم كي يؤازروه. وهذا يعني أن للجمهور دوراً حيوياً في اجراء التقارب بينه وبين المثقّف.

**دور الجمهور:**

إنّ دور الجمهور يبدأ من خلال وعيه أهمية أن يحارب وسائل الاعلان السلطويّة التي توجّه الثقافة الى الاستهلاك، وأن يخصّص بعض الوقت للقراءة والاطّلاع وحضور الندوات والمحاضرات الجادّة التي ترفع من سويّته الفكريّة، وأن يتفاعل مع المثقّف ليبرهن له بأنه على مستوى مايقال، وعلى مستوى نقده وتقييمه وتقويمه. وأهم ماينتظره المثقف من الجمهور هو المساندة والدعم والدفاع، حتى لايشعر أنه يقف وحيداً في العراء، أو أنه ينفخ في بوق أصمّ.

وبذلك يتجنّب الجمهور ترديد ماقالته اليهود لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون)[1] وهل يصعب -في الحدّ الأدنى- على المثقّفين في لحظة تلقّيهم وتحوّلهم الى جمهور، هل يصعب عليهم أن يساندوا من يقول مايجب أن يقال؟

فهلاّ التحم المثقّفون والجماهير لتصبح يد الله معهم لينهضوا بالانسان العربي من الحضيض، ويعيدوا اليه الكرامة والحريّة؟

---

(١) سورة المائدة، الآية/ ٢٤/.